نهرتها: لمَ لا تسألي والدك؟! نظرة البنت تربكك. عيناها واسعتان دعجاوان تتطلّعان مباشرة كعيون المسيحيين الأوائل في الأيقونات القديمة، هل يلقون بها إلى السباع؟. يلعن «أبوك» يا شهرراد، هل نأتي بأولاد وأحفاد ليحاسبونا على ذنوبنا؟!

ومحمود؟ هل خلّفته ونسيته؛ ليقفز في وجهي كعفريت العلبة، أو كشبح يطالبني بكشوف الحساب؟! سبحان الله، الأشباح تنبعث من الماضي، من القبور. زمنٌ لا معقول، يسكّن الأشباح المستقبلَ لا الماضي. «حلّي عني يا شهرزاد!» «حل يا محمود!» أسئلته أصعب؛ لأنه أكبر منها سنا، لأن ظرفه يتيح له من التجارب والمعارف ما لم يتح لها، أم لأن ذكاءه يمكّنه من النفاذ عبر المسلمات كمنشور ضوء؟ ليست الصورة دقيقة، لا ينفذ منها بل ينفذ فيها، يصعقها فتسقط كومة أمام عيني، كيف أقيمها ثانية الآن؟! «يلعن والديك يا محمود!» أكتب من أجلك، سأعطيك هذه الأوراق قريبا أو ذات يوم. هل تحملها بين يديك بحرص وتوليها ما يليق بإرث خلّفه أجداد طيبون، أم تنظر إليها بسرعة وعبور، تقرؤها بعين الشك، وسخرية تتعيّن على وجهك ابتسامة مستخفّة؟ ربما تغضب على طريقة الأباطرة القدامى فتزيح الأوراق من أمامك بضربةَ يد وتقول احرقوها!

بكى الناظر، ثم غفا، ثم قام مدافعا عن نفسه. سأقول لشهرزاد... وبدا أن لديه دفاعا قويا يلقيه على مسامع حفيدته. «سأقول لمحمود...» بدا له أنه يقف ثابتا، يترافع عن نفسه بصوت جهوري: نعم ها أنا أقف ثابتا على أرض الحقيقة، أقف يا بنت، أمشي يا بنت، لست مقعدا يا ولد، ليس بعد!

انتفض واقفا وراح يقطع حجرات البيت بخطى حثيثة.